

مدينة تطوان المغربية

كتبه عائد عميرة | 4 مارس ,2017



بين مرتفعات جبل درسة وسلسلة جبال الريف وعلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط وفي منطقة فلاحية في أقصى الشمال الغربي للمملكة، تقع مدينة "الحمامة البيضاء" تطوان <u>الغربية</u> ذات الطابع الأندلسي، شامخة بأسوارها العتيدة ومآثرها الخالدة الضاربة في التاريخ.

تطوان .. بنت غرناطة

في معالمها التاريخية وفي عاداتها وتقاليدها السائدة منذ القدم، في ألقاب أسَرها، وفي مظاهر حضارتها، من موسيقى وطبخ ولباس وعمارة وحدائق وصناعات تقليدية، يظهر ارتباط تطوان بالحضارة الأندلسية واحتفاظها بالإرث الأندلسي، "فهي بنت غرناطة، وأختها الفاترة"، وملاذ الأندلسيين الطرودين من إسبانيا بعد سقوط غرناطة عام 1492.

فعلى مر التاريخ، تمكنت الدينة الغربية من الحفاظ على حضارتها الثقافية والعمرانية الأندلسية رغم انفتاحها على عدة روافد ثقافية طيلة القرون الماضية، وهو ما يظهر في أحيائها ومنازلها،



مساجدها ومقابرها، أسوارها وحصونها، أقواسها وساحاتها، حماماتها وفنادقها القديمة، قصورها بما تتميز به من أفنية ونافورات وحدائق وأزقتها العتيقة.



بالجزء الشمالي الغربي للمدينة، يظهر العمار الأندلسي جليًا، بدوره السقفة بالقرميد ونوافذه الخارجية، حيث توجد قصبة سيدي المنظري، بقايا سور يبلغ طوله خمسة وستين مترًا ويرتفع على علو سبعة أمتار، تلتصق به ثلاثة أبراج، ترتبط فيما بينها عبر ممر حراسة يتم الدخول إليه عبر درج بجانب باب القصبة، التي بنيت خلال القرن الـ15 من طرف مؤسس المدينة الأول أبو الحسن علي المنظري وكانت مقرًا للحكم وقاعدة عسكرية لمراقبة كل التحركات الخارجية والمرات التجارية انطلاقًا من أحد أبراجها.

وفي وسط المدينة العتيقة التي بناها مهاجرو الأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري على أنقاض تطوان القديمة، يرتفع "جامع القصبة" على شكل مربع يصل طول أضلاعه إلى 20 مترًا، مرتكزًا على أعمدة تعلوها أقواس مكسورة ومغطى بسقوف خشبية مائلة مغطاة بالقرميد، ويتميز هذا الجامع، إلى جانب خلوه من الزخارف، بعدم توفره على صحن.

إلى جانب الفن المعماري، ما زال سكان تطوان يحتفظون باللهجة الشعبية والموسيقى الأندلسية

وتتميز الدور التطوانية العتيقة بالفناء الأوسط الذي تتمحور حوله مختلف الغرف والرافق الختلفة للبيت، ومنه يتم التواصل بالخارج عبر مدخل غير مباشر نحو الباب الرئيسي، ومع انعدام النوافذ



المطلة على الخارج أو قلتها، تتحول الدور إلى عوالم صغيرة مغلقة بتباين صارخ بين الروعة الجمالية داخل الدور والبساطة خارجها.

إلى جانب الفن العماري، ما زال سكانها يحتفظون باللهجة الشعبية والوسيقى الأندلسية، وبالطرْز وبالصناعة التقليدية والقيم الثقافية الأندلسية التي تخص جميع اليادين، انطلاقًا من تنظيم النزل وتأثيثه، إلى التغذية واللباس والاحتفالات والأعياد والزواج وعادات التنزه وغيرها.

"الحمامة البيضاء".. تقاليد وعادات ضاربة في التاريخ

رغم تأثره بالطبخ العثماني، فإن تأثير الطبخ الأندلسي بأصنافه وطرقه وأسمائه كان أشد على المطبخ التطواني، ويتضح ذلك من خلال انتشار أكلات البريد، المغاش، المالوزة، البسكوشو، الطرطيا، الفنيد الذي يقدم للأطفال بمناسبة الختان، وبعض الفطائر والمجبنات والحلويات اليابسة ككعب غزال والغريبة.





وفي الملابس، يتميز لباس النساء التطوانيات بحمولته الثقافية الأندلسية، فكثير منهن لا زلن يلبسن لباسًا يشبه لباس النساء المدجنات ونساء غرناطة، فهن تتزين بالمنديل المورسكي المخطط غالبًا بالأحمر والأبيض، يسمى "أتازير"، ويعتمرن "الشاشية" وفوطة بيضاء توضع على الكتف، وحزام يربطن به المنديل يسمى الكرزية، في حين ظل لباس الرجال مشابهًا للباس المغاربة المحلي، والمتمثل بصفة خاصة في البرنس والحايك.

ومن بين القلائد المألوفة في المدينة، هناك قلادة لا زالت تستعمل في زينة العروس، وهي تتكون من عدة سموط من اللؤلؤ تتخللها كريات من الذهب، وتشبه هذه القلادة إلى حد كبير بعض الحلي النصرية التي لا زالت محفوظة.





تعرف مدينة تطوان البالغ عدد سكان أهلها أكثر من 300 ألف نسمة، بمدينة "الحمامة البيضاء"، حيث يوجد تمثال حمامة بيضاء باسطة جناحيها على ما يحيط بها من تلال وجبال، بناه نحات إسباني في ثمانينيات القرن الماضي، تمثال أضحى رمزًا لها لطيب أهلها وحسن استقبالهم للناس على مر التاريخ، وعلى عكس مدن "الداخل"، تعتبر اللغة الإسبانية اللغة الثانية لدى سكان تطوان، عوضًا عن اللغة الفرنسية السائدة في باقى المُدن لتأثرها الكبير بالأندلسيين.

ويشتهر التطواني الأصيل باعتداده بنفسه واستعلائه على باقي سكان الغرب، ويطلق التطوانيون على الغاربة الآخرين "سكان الداخل"، وقد وصف المؤرخ عد داود – ابن الدينة – روح التطواني فقال في ختام كتابه تاريخ تطوان: "عرفت الدينة كيف تعيش عزيزة الجانب، موفورة الكرامة، حسنة السمعة، فكان القليل فيها مقنعًا، والضعيف لطيفًا ظريفًا، والصغير نقيًا نظيفًا، والغني مقتصدًا مدبرًا، والحياة وديعة يسيرة، والأعمال متقنة منظمة، لذلك كان سكانها آمنين مطمئنين، راضين مرضيين".

رابط القال: https://www.noonpost.com/16909/